

الوضوح والغموض وطبيعة الأدب

بقلم عبد الباقى إبراهيم

المدرس بمدرسة فاروق الأول الثانوية

منذ عقدين من السنين أو أقل ، كان الحديث في موضوع كهذا يبدو غريباً
فقد كان الأدب يخلقه الشعراء والكتاب في ذلك العهد وانحاً ، وما غمض منه كان
مستوحشاً غريباً كأنه في غير بيئته

كان القراء يقولون على أدب المنفلوطى ما ألف أو ترجم لوضوحه و « بساطته »
إقبالاً شديداً ، حتى ندر في تلايمذ ذلك العهد من لم يقرأ كل ما أخرج المنفلوطى
على حين كان حديث القمر مثلاً للرافى لا يجد قبولاً

ولم يكن للشعر إلا مدرسة واحدة هى مدرسة شوقي وحافظ وحفنى وأضرابهم
تلك المدرسة التى كانت تؤمن بالوضوح بفطرتها اللهمة .

أما الآن فقد تبدلت الحال كثيراً ، فقد أصبح الغموض فى الأدب مذهباً
ورأياً له أنصار يدافعون عنه ويحتجون له ، فإني أذكر أنى سمعت الدكتور
الأديب « زكي أباشادى » ينتصر له فى أثناء حديث بينى وبينه ، وأحسبه كتب
فى ذلك أيضاً ، وأذكر أن أستاذاً كبيراً من أساتذة الأدب فى مصر أشار إلى
هذا المذهب فى أثناء درسه إشارة مقرونة بالمطف عليه ، بل قد ذهب إلى أبعد من
هذا إذ فضل أبا تمام على البحترى من ناحية ذات صلة قوية بغموض المسلك
وخفاء المقصد .

ثم ننظر فى الشعر المصرى فإذا كثير منه لا تكشف عبارته عن قصد ولا
تبين عن غرض ، ولقد تقرأ البيت مرة بعد أخرى فإذا هو فى النهاية أشد غموضاً
وأكثر خفاء

وقد تكون ممن أدركو حظاً وافراً من اللغة ومن يستطيعون أن يفهموا
فلسفة (كانت) على خفائها وشدة غموضها ، وتمجز مع ذلك عن أن تدرك معنى

يلت من هذا الشعر تدل عليه طبيعة التركيب

من أجل هذا عقدنا هذا البحث لنكشف فيه عن طبيعة الأدب كما نفهمها
ثم ننظر أى الأسلوبين أدنى إلى هذه الطبيعة صلة ، وأقرب منها رحا ؛ فإنه يلوح لنا
أنه لا شيء يضر الفن أكثر من أن تصرفه عن طبيعته حتى يتناكرا ، وتبعده
عن جوهره حتى يتنافرا

وقبل أن ندخل فى صميم بحثنا نرى أن نحدد ما نمنيه بالوضوح والغموض
محددًا دقيقًا

إننى لا أقصد بالوضوح أن يكون المعنى ساذجًا فطريًا قد تناوله الأديب من
كتب فلم يكلف ذهنه فى الوصول إليه مشقة

ولا أن يكون قد صار مألوفًا لكثرة ما تناهتته الأذهان وتواردت عليه
الافهام ، فما هو إلا أن تسمع العبارة حتى يهجم على نفسك ويسبق إلى فهمك
وإنما ظنى به أن يكون التركيب نفسه بكلماته ونظامه يدل عليه ويكشف عنه فلا
يضطرننا إلى ضروب من التأويل لا نطمئن إليها ولا نجد البينة عليها من الألفاظ نفسها
ونحن ندخل فى مرتبة الوضوح ، المعاني التى توحى بها الكلمات أو العبارات
إيحاء فلا نقف عند الحد الضيق الذى تحدده التواميس للكلمة ، فإن الشاعر أو
الكاتب قد يستعمل كلمة يدل بها على ما هو أوسع كثيرًا مما لها فى القاموس ، ومن
أجل هذا كان فهم الشاعر فيها تامًا ، وقدره حق قدره ، بحاجة إلى الذوق ، وإلى
الصلة الروحية التى تجمع بينه وبين الناقد

ولا نقصد بالغموض أن يكون المعنى عميقًا قد سافر إليه الدهن أو تعب فيه
الخيال أو ارتفع به مبدعه عن الأفق المادى للأدباء ، فعمق المعنى فى رأينا هو
بُعده وارتفاعه عن أفق الدهن المادى ؛ أما الغموض فهو قصور التركيب نفسه
— مع أن النظام يجرى على القانون العربى — عن أن يكشف عما فى النفس دون
لبس . فهما شيئان مختلفان

وكما نرى العمق والغموض مختلفين نرى أن العمق لا يدعو لزامًا إلى الغموض

ولا يضطر إليه حتى لا يكون للأدب مندوحة عنه ، وآية ذلك تظافر بها في كثير من النثر وفي كثير من الشعر ؛ فكثير من القراء يعرفون أنه قد ترجم إلى النثر العربي آثار لنيثشة الفيلسوف الأديب الألماني في « مجلة العصور » و« ليجيتي » آلام فرتر : للزيات » وفاوست : « الدكتور عوض » ولشكسبير : « المقتطف » ولأناتول فرانس : « أناطول فرانس في مبادله : للأمير شكيب أرسلان »

وما من شك في سمو أفكار هؤلاء وعمقها ، إذ كان لكل منهم حظ غير يسير من الفلسفة ، وكان لبعضهم نصيب كبير من البحث العلمي الدقيق ، وقد اتسع لمن ترجموا لهم أن يصوغوا أفكارهم في أساليب بلغت النجاة من الإلبانة والوضوح وفي الشعر نستطيع أن نجد أمثلة كثيرة تجمع بين الوضوح وسمو المعنى وارتفاعه وإن شئت فقل عمقه ، وقد اخترنا هنا من هذه الأمثلة لشاعرين يختلفان عصرًا وبيئة ولكنهما يتفقان في نزعة واحدة ، هي ازدحام الأساليب بالمعاني البعيدة العميقة وهما المتنبي والمقاد

المتنبي يمدح :

إلى سيد لو بشر الله أمة بغير نبي بشرتنا به الرسل
رأيت ابن أم الموت لو أن بأسه فشا بين أهل الأرض لا تقطع النسل

فكم عين قرب حذقت لنزاله فلم تنفض إلا والسنان لها كل
وحالت عطايا كفه دون وعده فليس له إنجاز وعد ولا مطل
وله أيضاً :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرنا شموسا
أو كان صاذف رأس عازر سقيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عبئت فكان العالمون بحوسا
وله أيضاً :

كان سخاءك الإسلام : تخشى إذا ما حلت عاقبة ارتداد

كان الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيفوك من رقاد
وقد صفت الأسنة من هموم فما يخطر إلا في الفؤاد
للأستاذ عباس العقاد :

قال من قطعة له بعنوان « أمام قفص الجييون »

اللب الآن وانتظر بعد حقا ترق في « سلم الرق » وتمل
كيف لم تصعد السلام وثبا أيها الصاعد الذي لا يمل

انتظر يا صديق شيئا فشيئا تطبخ القوت كله بيديكا
غير أني إخلال ما كان نيكاً منه ، أجدى في الحالتين عليك

انتظر يا صديق مليون عام أو ملايين لست والله أدرى
إن تدانيت بعدها من مقاي فقصارى الطاف أن لست تدري

وله بعنوان « صيام الفكر »

دع اليوم زاد الفكر في صفحاته أنا اليوم عن زادي من الفكر صائم
وقد يهجر العقل الكتاب تدينا كما تهجر القوت الجسوم الطواعم
ففي هذه الأمثلة التي يمكنك أن تجد كثيراً من طرازها ، استطاع شاعر أن
يخضعا الأسلوب لها وأن يروضه رياضة ماهرة للكشف عن معان لا يصل إليها
الذهن إلا بعد سمو وبحليق

وزيدك اقتناعاً بصحة ما ذهبنا إليه أن ترى المعنى الذي ذلل ووطئ لكثرة
تداوله يتناوله الشاعر تناولاً غير موفق ، فإذا هو سبيل إلى الغموض وطريق إلى
الخفاء . وخذ مثلاً على ذلك قول أبي تمام في عبد الله بن طاهر :

أهن عوادي يوسف وصواحيبه فغزماً ، فقد ما أدرك النجج طالبه
فقد أراد أبو تمام أن يقول « إن النساء هن اللاتي صرفن يوسف عن رشده
وإذن فلا تشق بهن في إغرائك بالممدول عن رحيلك إلى عبد الله وامض لطبتك
في إضرار وعزم »

إن المعنى الذى جاء به أبو تمام وهو اتهام النساء فى النصيح ليس مبتكراً ولا بعمداً ، فقد جاء فى الحديث « إنكن صواحبات يوسف » والنتيجة التى رتبها عليه كانت فى حاجة إلى حلقة مفقودة من الألفاظ تهدي إليها ، وهو لم يخلق جواً يجعل الدهن يعضى إليها دون التواء كأن يأتى بحوار بينه وبين المرأة كما فعل أبو نواس فى قوله :

تقول التى من بيتها خف مركبى غريز علينا أن نراك تسير
إلى آخر الأبيات المعروفة ، من أجل هذا كان أبو تمام غامضاً فى هذا المعنى القريب التناول ، ومن أجل هذا عابه الآمدى وقال له أبو العميشل « لم لا تقول ما يفهم ! » ولعلنا بمد ما تقدم نكون قد وفقنا إلى تحديد الروض والعموض تحديداً يميننا فى حلقات البحث التالية إن شاء الله

عبد الباقى إبراهيم